موجز في الأضداد وأهم كتبها

. .

-

المقدمة:

تعد ظاهرة الأضداد إحدى المشكلات في مفردات لغتنا العربية وقد تعرض علماء العربية لهذه الظاهرة وتناولوها بالدرس والتحليل للبحث عن أسبابها، وقد انقسم علماء العربية في هذا الأمر على قسمين بين مؤيد ومعارض، فالمؤيد يذهب إلى أن الأضداد حقيقة موجودة في العربية ويجب التعامل معها ولا ضير من وجود مفردة تعطي معنيين متضادين.

والمعارض لا يعد الأضداد من اللغة لأنها أمر غير طبيعي ولا يجوز لكلمة واحدة أن تعطي معنيين متضادين. وبين مؤيد ومعارض لهذه الظاهرة في اللغة نجد إن كثيراً من الكتب تناولت موضوع الأضداد ودرسته بإسهاب محاولة التعريف به.

ولا شك إن لهذا الموضوع من الأهمية في العربية ما يجعل العلماء المهتمين باللغة يكثرون من دراسته والإلمام به ليتعرف هذا الجيل على عظمة هذه اللغة وسعتها وغناها بمفردات مختلفة.

وقد تناول بحثي هذا مفهوم الأضداد وأسباب ظهورها، ومن أيدها من العلماء ومن هو منكر لها مع استعراض يسير لأهم كتب الأضداد التي بين أيدينا دون الخوض في تفاصيل جميع الكتب أو الأضداد بمعناها الكلي وذلك لتشعب هذا الموضوع.

وقد قسمت بحثي هذا على مبحثين فضلاً عن المقدمة والخاتمة.

تناول المبحث الأول مفهوم الأضداد وأسباب ظهورها في لغتنا العربية فضلاً عن الكلام على موضوع التأييد والإنكار لهذه الظاهرة اللغوية.

أما المبحث الثاني فقد تطرق لذكر أهم الكتب التي تناولت موضوع الأضداد. وقد تناولت فيه خمسة كتب هي كتابا الأصمعي وابن السكيت لأنهما الأسبق في التأليف بهذا الموضوع، وقد حاولت البحث في هذين الكتابين عن المتشابهات والمختلفات من الألفاظ، كما حاولت التوصل إلى شيء حول هذين الكتابين.

أما الكتب الأخرى فهي كتاب ابن الأنباري في الأضداد مع كتابي ابن الدهان والصغاني.

أما الخاتمة فقد تناولت فيها أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

اعتمدت في كتابة بحثي هذا على مجموعة من المصادر منها كتب الأضداد للأصمعي وابن السكيت وابن الأنباري وابن الدهان والصغاني

وكتاب فقه اللغة للثعالبي والمزهر للسيوطي وغيرها من الكتب التي أغنت البحث بالمعلومات المهمة.

أدعو الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في إنجاز بحثي المتواضع والله ولي التوفيق.

المبحث الأول

١. مفهوم الأضداد.
٢. أسباب ظهورها.
٣. الأضداد بين مؤيديها ومنكريها.

أولاً: مفهوم الأضداد:

الأضداد جمع ضد وتعني النقيض والمقابل، والأضداد مصطلح أطلقه علماء اللغة العربية للدلالة على الألفاظ التي تعني معنيين متضادين أو مختلفين.

وردت في كتب اللغة العربية كثير من التعريفات لمفهوم الأضداد منها ما هو لغوي كتعريف أبي حاتم السجستاني (ت٢٤٨هـ) " فأما المعروف في الضد في كلام العرب فخلاف الشيء "[١].

أما اصطلاحياً فقد عرفت الأضداد تعريفات كثيرة نذكر منها تعريفين: الأول لأبي بكر ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ) " الحروف التي توقعها العرب على المعاني المتضادة، فيكون الحرف منها مؤدياً عن معنيين مختلفين "[٢].

والثاني تعريف ذكره أبو الطيب اللغوي (ت٣٥١هـ) " الأضداد جمع ضد، وضد كل شيء ما نافاه نحو البياض والسواد، والسخاء والبخل، والشجاعة والجبن، وليس كل من خالف الشيء ضداً له ألا ترى إن القوة والجهل مختلفان وليسا ضدين، وإنما ضد القوة الضعف، وضد الجهل العلم، فالاختلاف أعم من الأضداد إذ كان كل متضادين مختلفين، وليس كل مختلفين ضدين "[٣].

ويبدو أن أبا الطيب أراد بهذا التعريف أن يزيل الإبهام والاضطراب لدى كثير من الباحثين سواء كانوا من المتأخرين أو المحدثين في موضوع التضاد.

وفي هذا الصدد يشير د. محمد حسين آل ياسين إلى أن تحديد أبي الطيب دقيق ولو طبق على الأضداد تطبيقاً صحيحاً بعيداً عن الغلو لتضاءل عدد الألفاظ حتى لا يبقى منها إلا الشيء القليل[٤].

ومن الجدير بالإشارة إلى أن ظاهرة الأضداد ليست قديمة كما يدعي ابن فارس (ت٣٩٥هـ)[٥]، وإنما هي حديثة النشأة في لغة العرب وظهرت على

أثر توحد القبائل وتداخل لهجاتها، إذ عمد المتكلمون إلى التفنن في كلامهم واستخدام المجاز والكناية والتشبيه، فظهرت للألفاظ معان جديدة.

وقد استخدم الناس هذه المعاني الجديدة وأخذت طريقها للاستعمال اللغوي[٦]، مما دعا علماء العربية إلى وضع المعاجم اللغوية التي جمعت هذه الكلمات وأخذت تعرف باسم الأضداد.

ثانياً: أسباب ظهور الأضداد.

لقد أمعن بعض علماء العربية النظر في الأضداد وأسباب ظهورها وحاولوا أن يجدوا لهذه الظاهرة اللغوية حلاً، وقد عزو ذلك لعدة أسباب يمكن إجمالها بما يأتي:-

١. إنها من قبيل التفاؤل أو التشاؤم كالسليم واللديغ[٧]، قال أبو حاتم: "وهو عندي على التفؤل"[٨]. والريان: للناهل والعطشان[٩]. والبصير للبصير والأعمى. قال أبو الطيب: " قالوا للعمياء بصيرة على وجه التفاؤل لها بصحة البصر"[١٠]. وبهذا أرادوا أن يشعروا فاقد البصر أن لديه ما يحرص على امتلاكه فلقبوه بالبصير ويدل أيضاً على التأدب والتجمل[١١]. وموضوع التفاؤل والتشاؤم أمر له أهميته عند العرب، ونستطيع أن نورد أمثلة كثيرة تدل دلالة واضحة على إن للتفاؤل دورا في وجود بعضها كالذي ذكرناها ها هنا. فمثلاً إن المصريين إذا ما أرادوا أن يشيروا إلى مرض شخص ما لديهم فإنهم يقولون (إن فلان في عافية) ويقصدون أنه مريض، وهم يتشاءمون من اللون الأسود وقد أدى هذا التشاؤم إلى تجنب لفظة عند عامتهم، فهم يطلقون على اللون الأسود اللون الأسمر، وقد نرى في هذا المثال وجهاً للتشاؤم وإن لم يكن من الأضداد. ويدلنا ذلك ما للتشاؤم من أثر في اللغة ومفرداتها ونظنه شائعاً في مختلف البلاد العربية.

٢. للتهكم والاستهزاء أو لاتقاء التلفظ بما يكره التلفظ به أو ما يمجه الذوق أو بما يؤلم المخاطب كالعاقل: للعاقل والجاهل[١٢]، قال ابن الأنباري: "ومما يشبه الأضداد أيضاً قولهم للجاهل: يا عاقل". ومثال ذلك أيضاً الخفيف للثقيل[١٣]. ومنه أيضاً الجون: للأسود والأبيض[١٤].

٣. وقد يجيء التضاد في الظاهر من انتقال اللفظ عن معناه إلى معنى آخر مجازي لنكته بلاغية أو لعلاقة بينهما، ومن هذا القبيل لفظ "الكأس"[١٥]، الذي أطلق على الإناء وللشراب الذي فيه[١٦]، والأصل في المعنى (الزجاجة المملوءة) ثم انتقل في الاستعمال إلى السائل الذي فيها وهذا التطور واضح للدلالة، يقول الفراء (ت٢٠٧هـ): "الكأس الإناء بما فيه، فإذا شرب الذي فيه لم يقل له كأس، بل يرد إلى اسمه الذي هو اسمه من الآنية"[١٧]، وقد يكثر استخدام الكلمة ضد مدلولها عن هذا الطريق

فيتناسى فيها وجه المجاز ويصبح إطلاقها على ما يقابل مدلولها الأصلي من قوة استخدام اللفظ في حقيقته.

٤. وقد يجيء التضاد من دلالة الكلمة في أصل وضعها على معنى عام يشترك فيه الضدان، فتصلح كل منها لذلك المعنى[١٨]، وهذا ما يسميه أحياناً علماء الأصول بالمشترك اللغوي (كالقرء) الحيض والطهر[١٩]، لأن معناه الأصلي الوقت المعتاد، (والصريم) لليل والنهار[٢٠]، لأن كلاً منهما ينصرم عن الآخر و(الزوج) للذكر والأنثى و(الصارخ) في إطلاقه على المغيث والمستغيث[٢١].

٥. وقد يأتي التضاد من عوارض تصريفية كتشابه صفة اسم الفاعل واسم المفعول من المضعف كالمرتد ومن صيغة افتعل إذا كان عين الفعل معتلاً كممتاز ومزداد ومختار ومصطاد[٢٢].

٦. وقد يأتي التضاد أيضاً من اختلاف اللهجات[٢٣]، كلفظ (وثب) فهي عند حمير، بمعنى (قعد) وعند غيرهم (قفز) و(السّدفة) فهي عند تميم (الظلمة) وعند قيس بمعنى (الضوء)[٢٤]، و(لَمَقَ): فهي بمعنى (كتب) عند بني عقيل، و(محا) عند قيس[٢٥].

٧. ويرى آخرون من العلماء إلى أن أصل اللفظ في العربية ثنائي وإن معنى التضاد أتى من اختلاف الأصلين، مثل ذلك (هجد) بمعنى (نام) و(سهر) فمن المحتمل أن تكون بمعنى (النوم) منحدرة من (هدأ) إذا (سكن)، وفي معنى (السهر) من (جد) إذا (أجهد)، لما في السهر من اجتهاد في منع النوم. ومن ذلك أيضاً (أبض) بمعنى (سكن وتحرك) فمن المحتمل أن تكون في معنى السكون متشعبة من بض في بضا وباض... بمعنى أقام وسكن، وفي معنى التحرك منحدرة في (أبض) الشيء إذا حركه[٢٦].

وأياً كانت العلل والأسباب المؤدية إلى هذه الظاهرة اللغوية التي شغلت العلماء قديماً وحديثاً، فلا سبيل إلى إنكارها وتجشم الصعاب لإبطالها، فالتضاد واضح وجلي في كثير من الألفاظ، إلا أن بعض العلماء بالغوا فيها وعدوا قسماً منها لا يدخل ضمن هذا الباب.

ثالثاً: الأضداد بين مؤيديها ومنكريها.

لقد شكل وجود الأضداد في العربية مشكلة أو ظاهرة طالما تعرض لها العلماء قديماً وحديثاً بالأخذ والرد، فمن مقر بها ومعترف بوجودها ومن منكر مبطل لها، ذلك إن إطلاق لفظ على معنيين متضادين ليس بالأمر الطبيعي في اللغة، إذ إن اللفظ في اللغة إنما وضع ليدل على مدلول معين، فإذا وقعت على المتضادين لم تؤد المقصود من إطلاقها. ولكن أكثر أهل اللغة اتفقوا على أن الأضداد حقيقة لغوية لا سبيل إلى إنكارها، وتعللوا لها بالعلل وذكروا لها من الأسباب ما سنجمله فيما بعد. ومن هؤلاء العلماء الذين أقروا بها وألفوا فيها

الرسائل قطرب (ت٢٠٦هـ)[٢٧]، وأبو عبيدة (ت٢٠٨هـ)، والأصمعي (ت٢١٦هـ)، والتوزي (ت٢٣٣هـ)[٢٨]، وابن السكيت (ت٢٤٤هـ)، وعسل بن ذكوان[٢٩]، وأبو حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ)، وأبو بكر الأنباري (ت٣٢٨هـ)، وابن الدهان (ت٥٦٩هـ)، والصغاني(ت٦٥١هـ)، وغيرهم الكثير ممن سار على نهجهم.

أما الذين أنكروا الأضداد فمنهم أبن درستويه (ت٣٤٧هـ)[٣٠]، الذي ألف كتاب (إبطال الأضداد)، إلا أنه اعترف بمجيء النادر منها، إذ يقول: "وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز للفظ واحد الدلالة على معنيين مختلفين أو أحدهما ضد الآخر، لما كان ذلك إبانة، بل تعمية وتغطية، ولكن قد يجيء النادر من هذا لعلل"[٣١].

وقد استغل الشعوبيون الأضداد وعدوها منقصة تؤخذ على العرب وتزري بهم، فكانوا يحتجون بأن الاسم منبئ عن المعنى الذي تحته ودال عليه وموضح تأويله، فإذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب أيهما أراد المخاطب وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى[٣٢].

وقد رد عليهم بعض العلماء ومنهم أبو بكر الأنباري فقال في مقدمة كتابه (الأضداد): "إن ذلك يجوز لأن كلام العرب متصل يفسر أوله آخره وبالعكس" وتمثل بذلك على كلمة (الجلل)[٣٣]، وهي من الأضداد في قول الشاعر:

كل شيءٍ ما خَلا الموتُ جَلَل والفتى يَسعى ويُلهيه الأَمَلْ

فدلت كلمة الجلل ها هنا على إن كل شيء ما خلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقل وتميز إن (الجَلَل) ها هنا معناه (عظيم)[٣٤].

وهذا لا يسري على الأضداد فحسب، وإنما على كل كلمة تحتمل أكثر من معنى، كالزبرج للأثر، والزبرج للسحاب الرقيق، والجميل للرجل الحسن، والجميل للشحم المذاب إلى غير ذلك من الأمثلة.

ومن هنا يتوضح لنا أن قرائن الكلام بما يتقدم الضد وما يتأخر عنه هو الذي يخصص أحد المعنيين ويحصر اللفظة، وعليه فلا لبس ولا غموض في الكلام[٣٥].

ومن العلماء الذين ردوا على منكري وجود الأضداد ابن فارس (ت٣٩٥هـ) فقد أكد أن الذي روى الأضداد هو الذي روى: " إن العرب تسمي السيف مهنداً، والفرس طرفاً "[٣٦].

وهذا يعني أنه إذا ما آمنا بوجود كلمات متشابهة في العربية فلماذا لا نؤمن بوجود كلمات متضادة فيها؟ لا سيما وإن رواة الكلمات المتشابهة هم الذين جاؤوا إلينا بالكلمات المتضادة، وعليه وجب علينا تصديق هؤلاء الرواة في كلا الحالتين وعدم تصديقهم في واحدة، وتكذيبهم في الثانية.

المبحث الثاني

أهم كتب الأضداد

١. كتابا الأصمعي وابن السكيت.
٢. كتاب السجستاني.
٣. كتاب ابن الأنباري.
٤. كتابا ابن الدهان والصغاني.

أهم كتب الأضداد

حظيت ظاهرة الأضداد بدراسات وكتب كثيرة فيما لو قورنت بسواها من الظواهر اللغوية الأخرى، وقد عثرنا في كتب التراجم والفهارس القديمة على عدد غير قليل منها، وسأحاول في هذا المبحث التحدث عن أهم هذه الكتب بصورة موجزة دون الإخلال بما تحتويه من مادة لغوية مهمة.

أولاً: كتابا الأصمعي وأبن السكيت:

طبع هذان الكتابان مع كتابي السجستاني والصغاني بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩١٢ بتحقيق المستشرق أوغست هفنر.

مؤلف الكتاب الأول هو أبو سعيد الأصمعي[٣٧]، أما الكتاب الثاني فمؤلفه أبو يوسف ابن السكيت[٣٨]، والأمر الذي دعانا لدراسة هذين الكتابين معاً هو تشابه الكتابين من حيث المادة والمنهج وطريقة العرض، والأمر الآخر هو إن معظم الباحثين المحدثين يعتقدون إن كتاب الأصمعي ليس له وإنما هو نسخه أخرى من أضداد ابن السكيت.

ومن خلال الاطلاع على هذين الكتابين نستطيع أن نجمل التطابق في أمور منها:

١. الأضداد التي وردت في الكتاب المنسوب للأصمعي هي نفس الأضداد الواردة في كتاب أبن السكيت باستثناء اثني عشر لفظاً وردت عند الأصمعي ولم ترد عند ابن السكيت وهي: (قهم، ولفأ، ووجه، وأكرى، وقرع، وغابر، وطرب، وزفر، وبلو، وصاقب، وصرد، وعرد). وباستثناء لفظ واحد ورد عند ابن السكيت ولم يرد في الكتاب المنسوب للأصمعي وهو: (قيص) [٣٩].

ومجموع الأضداد في الكتاب المنسوب للأصمعي هي مئة وخمسة ألفاظ، وفي كتاب ابن السكيت أربعة وتسعون لفظاً.

٢. يتفق الكتابان في طريقة عرض وتقديم الأضداد، فهما يرجعان إلى المادة المجردة المشتق منها اللفظ على خلاف ما في كتب الأضداد الأخرى و(القرء) مثلاً يأتي في مادة (قرأ)، (والضراء) في مادة (ضرا).. وهكذا.

٣. يتفق الكتابان أيضاً في ترتيب الأضداد العشرة الأولى، ففي الكتاب المنسوب للأصمعي وردت مرتبة هكذا:

(قرأ، شعب، عسعس، أقوى، عفا، جلل، سجر، ضرا، رها، صرى)، وقد وردت بهذا الترتيب أيضاً في كتاب أبن السكيت باستثناء العاشر الذي تأخر إلى ما بعد الثاني عشر، ثم يستمر الترتيب كذلك إلى النهاية.

٤. الشيوخ الذين يروي عنهم أبن السكيت هم نفس الشيوخ الذين يروي عنهم في الكتاب الأول المنسوب للأصمعي، وما ينسب لهؤلاء الشيوخ يتفق لفظه في الكتابين.

٥. وأهم من ذلك اتفاق الكتابين بل وتطابقهما في معالجة كل مادة من مواد الأضداد. ولكي نبين هذا الاتفاق، نعرض هنا نموذجين يؤكدان ذلك.

المادة الأولى من الكتاب هي مادة (قرأ)، وقد وردت في كتاب الأصمعي هكذا: " قال الأصمعي[٤٠]: "القرء عند أهل الحجاز الطهر، وعند أهل العراق الحيض، وقال أبو عمرو بن العلاء يقال: قد دفع فلان إلى فلان جاريته تقرئها مهموزة مشددة يعني تحيض عندها وتطهر إذا أراد أن يستبرئها، وأقرأت الرياح هبت لوقتها، وقال مالك بن الحارث الهذلي:

كرهتُ العُقْر عقْر بَني شليلٍ إذا هبَّت لقارِئِها الرّياحُ

وأنشد أبو عمرو هذا البيت أي هبت الرياح لوقتها في الشتاء. وقال الأصمعي[٤١] أقرأت الرياح إذا جاءت لوقتها، ويقال ذهبت عنك القراءة ضعيفة يريد وقت المرض، وأهل الحجاز يقولون عُقر الدار وأهل نجد يقولون عَقر الدار فأهل الحجاز يضمون العين والعقر أصل الدار ومنه قيل العقار ويقال أهل القارية أي القرى وقال أبو عبيدة: يقال أقرأت النجوم بالألف معناه غابت ومعه قرء المرأة في قوله من زعم أنه طهرها لأنها خرجت من الحيض إلى الطهر كما خرجت النجوم من الطلوع إلى المغيب[٤٢].

ويقال هذه ناقة ما قرأت سلى قط بغير ألف أي ما حملت ملقوحاً ولا تبيت في بطنها ولد وقال أبو عمرو الشيباني: الإقراء أن تقرى الحية وذلك أنها تصري سمها شهراً أي تجمع سمها فإذا أوفى لها شهراً أقرأت سمها ولجته[٤٣]. ولو أنها لدغت في أقرائها شيئاً من الأشياء لم تطنه ولم يبل سليمها ولا يلبث حتى يموت. وقد أقر سمها إذا اجتمع ".

وقد ورد هذا كله في كتاب ابن السكيت ولم يختلف عما جاء في كتاب الأصمعي إلا اختلافات يسيرة وهي:

حذف عبارة (هذه ناقة) من قوله: (ويقال هذه ناقة ما قرأت سلى قط) وحذف كلمة (ملقوحاً) من قوله" (أي ما حملت ملقوحاً) وحذف عبارة (والاطناء أن لا يلبث حتى يموت) من قوله (ولو أنها لدغت في أقرائها شيئاً من الأشياء لم تطنه والأطناء أن لا يلبث حتى يموت ولم يبل سليمها).

وزيادة (حين تؤذي) على قوله: (وأنشدنا أبو عمرو هذا البيت احتجاجاً في القرء أنه الوقت يقول إذا هبت لوقتها في الشتاء) وزيادة عبارة (لغيبة الدم) في قوله: (ومنه قرء المرأة في قول من زعم أنه طهرها) وزيادة كلمة (وسمعت) بين كلمة قال وأبي عمرو الشيباني في قوله: (قال أبو عمرو

الشيباني: الإقراء أن تقرء الحية، وزيدت هذه العبارة: (قوله لم تطنه، كقولك لم تشوه إلا إن الاطناء لا يكون إلا في الحية، والاستواء في كل شيء). بعد قوله (لم يبل سليمها).

والمادة الثانية (عسعس) وردت في الكتاب المنسوب للأصمعي هكذا:

وقال أبو عبيدة: يقال عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر وأنشد (لعلقمة بن فرط التيمي).

مدّرعاتِ الليلِ لمّا عسَعسَا

أي أقبل، وقال بعضهم: عسعس إذا ولى[٤٤]. وقال علقمة التيمي:

حتى إذا الصبحُ تَنفَسا وإنجَابَ عنها لَيلُها وَعسَعسَا

وقد ورد هذا كله عند ابن السكيت إلا أنه حذف قوله (وعسعس أدبر) إلى نهاية الشاهد الأول.

وهكذا نجد أن الكتابين يتفقان في ترتيب المواد وفي عرضها ومعالجتها ولا يكادان يختلفان كما ذكرنا آنفاً إلا في أمور يسيرة.

وقد لاحظ المستشرق هفنز الذي نشر الكتابين مدى التشابه بين الكتابين فتوصل إلى أن كتاب ابن السكيت هو رواية ثانية لكتاب الأصمعي[٤٥].

ويبدو لنا من خلال دراسة هذين الكتابين أن الكتابين نسختان لكتاب واحد، وإن ما ورد فيهما من اختلاف يعود إلى سلسلة رواة الكتاب الذين قد يضيفون يحذفون بعض الجمل، أو أن مؤلف الكتاب الحقيقي والذي نظنه ابن السكيت قد أعاد النظر في الكتاب فحذف وزاد فيه، ومما جعلنا نعتقد أن هذا الكتاب هو لابن السكيت وليس للأصمعي هو وجود بعض العبارات في الكتاب يرد فيها اسم الأصمعي كقوله: (أنشد الأصمعي لأمرؤ القيس)[٤٦]، كما نجد إشارات تتكرر فيها عبارة (قال الأصمعي)[٤٧]، في أثناء الشرح مما يدل على أن المؤلف شخص آخر غير الأصمعي، كما أن في الكتاب روايات كثيرة عن شيوخ مدرسة الكوفة، كأبي عمرو الشيباني[٤٨]، والفراء، وابن الإعرابي[٤٩]، وهذا يخالف توجهات الأصمعي الذي ينتمي إلى مدرسة البصرة التي تختلف عن مدرسة الكوفة، علماً بأن المصادر تشير إلى أن أحدا من رجال مدرسة البصرة لم يرد عن الكوفيين غير أبي زيد، وهذه لا شك أدلة على إن الكتاب ليس للأصمعي، وإنما هو لأبن السكيت.

ثانياً: كتاب السجستاني.

يعد كتاب الأضداد لأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ) من الكتب المهمة التي وصلت إلينا فكتابه هذا (الأضداد) احتوى على مائة وخمسة وسبعين ضداً، ومن خلال تصفح هذا الكتاب نجد إن السجستاني قد اعتمد بشكل كبير على أبي عبيدة دون غيره ممن كتبوا في الأضداد. ومن النادر أن نجده يروي عن غيره من الشيوخ، على أنه لم يسلم دائماً برواية أبي عبيده فهو أحياناً يرد عليه كما فعل حين أورد قول أبي عبيده في لفظة (عسعس): وقال أبو عبيدة:

والليل إذا عسعس أقبل وقال أدبر، وأنشد لعلقمة بن مشرط التميمي فجعله إقبالاً:

مُدّرِعاتِ الليلِ لمَّا عسَعسَا وأدَّرعَتْ مِنه بهيماً حِنْدسا[٥٠]

والبهيم الأسود الذي لا يخالطه بياض، والحندس الشديد السواد، قال وقد زعموا إن أبن عباس رحمه الله قال عسعس أدبر والله أعلم قال أبو عبيدة وقال الزبرقان في الأدبار.

وَمَاء قَدِيُم عَهَده ما يُرى بهِ سِوَى الطّيرِ قَد باكَرْت وَرَدَ المَغلّسِ

وَرَدتَ بأفراسٍ عِتافٍ وَفتيةٍ فوارط في أعجازِ لَيلٍ مُعَسْعَسِ[٥١]

فقد قال السجستاني: " وقد تقلد أبو عبيدة أمراً عظيماً ولا أظنه ها هنا معنى أكثر من الأسوداد، عسعس أظلم وأسود من جميع ما ذكره"[٥٢].

والسجستاني يرفض إبداء الرأي في ألفاظ القرآن الكريم، ويأبى تفسيرها قال بعد أن أورد رأيه السابق في عسعس: "وكل شيء من ذا الباب في القرآن فتفسيره يتقى وما لم يكن في القرآن فهو يسير خطباً"، على أننا نراه يستشهد أحياناً ببعض آيات القرآن الكريم[٥٣].

وعند تصفح كتاب الأضداد للسجستاني نراه يأتي بالأضداد مبعثرة من غير ترتيب أي أنها مبثوثة في صفحات كتابه من غير أن تأخذ تسلسلاً واحداً.

ومن الأمور الأخرى التي أثارت انتباهنا في كتاب السجستاني هو إيراده اللفظ ذا المعنيين المتضادين من غير أن يرجع إلى اللفظ المجرد إلا إذا كان هذا المجرد من الأضداد.

ثالثاً: كتاب أبن الأنباري

إن أهم ما يميز كتاب الأضداد لأبي بكر بن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ) هو سعة الأضداد التي ذكرها في كتابه والتي بلغت ما يقارب من ثلاثمائة وسبعة وخمسين ضداً وهو عدد يزيد كلما ضعف ما ذكره السجستاني، ويبدو إن أبن الأنباري قد اعتمد في كتابه على كثير من الكتب التي ألفت في الأضداد بعد أبن السكيت والسجستاني.

إن أهمية كتاب الأضداد لأبن الأنباري تكمن في سعة الحفظ لديه والإكثار من الرواية، لذلك يمكن القول إن الشروح التي جاء بها أبن الأنباري كانت واسعة جداً، وهي مليئة بالاستطرادات والشواهد، والتي نجدها أحياناً لا تمت بصلة إلى موضوع الأضداد. وكثيراً ما نجده يورد شاهداً على أحد المعنيين المتضادين ثم يذهب بعيداً في شرح الشاهد وإيراد شواهد أخرى على شرحه، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما ورد في مادة (أخلفت)[٥٤]. فنجد أن أبن الأنباري يستشهد بعشرة أبيات من الشعر ليس منها سوى بيت واحد يدلل على فكره التضاد.

ومن الأمور التي يمكن ملاحظتها في هذا الكتاب أن أبن الأنباري يكثر من الاعتماد على شيوخ مدرسة الكوفة، وكثيراً ما يروي عنهم، ومن أبرز

من روى عنهم ثعلب، وسلمه بن عاصم، والفراء ونراه أحياناً يعتمد على كتاب ابن السكيت في الأضداد ويروي عنه، كما نلاحظ شرحه الكثير والواسع عن شيوخ مدرسة البصرة كالأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد وغيرهم الكثير.

إن سعة الحفظ عند أبن الأنباري واتساع المعرفة عنده هي دليل قاطع وواضح على إن أبن الأنباري كان من أعلام اللغة العربية في عصره، وكثرة ما أورده من أضداد دليل على علو كعب هذا اللغوي الجليل واطلاعه الواسع في موضوع الأضداد.

رابعاً: كتابا ابن الدهان والصغاني:

يختلف كتابا أبن الدهان[٥٥] والصغاني[٥٦] من حيث الأسلوب والمنهجية عن كتب الأضداد الأخرى ولاسيما كتاب السجستاني وأبن الأنباري اللذين اعتمدا في كتابيهما على كتب الأدب لكثرة ما فيها من الروايات الشعرية واللغوية والقصص، مما جعل كثير من الباحثين يصفها بأنها قريبة من كتب الأدب المعنية بشؤون اللغة ولاسيما موضوع الأضداد، إلا أن هذا الأمر لا نجده في كتابي ابن الدهان والصغاني لاعتمادهما على منهج جديد هو أقرب إلى طريقة التأليف المعجمي. فنجدها يكتفيان بإيراد مصطلح الضد وذكر معنييه المتضادين دون أية إشارة إلى أصل هذين المعنيين أو الاستشهاد بالأبيات الشعرية والروايات، كما كان يفعل في كتب الأضداد الأخرى، مثال ذلك مادة (الأمين) عند أبن الدهان لم يزد فيها عن قوله (المؤتمَن والمؤتمِن). وكذلك مادة (المأتم)[٥٧]. لم يزد فيها عن قوله: (النساء يجتمعن في الحزن وفي الفرح، وفيه نظر)، وكذلك فعل الصغاني، فمثلاً: مادة (الساجد)[٥٨] لم يزد في الأضداد على ذكر: (المنحني والمنتصب)، دون أن يشير إلى أن أحد المعنيين هو لغة قبيلة، وكذلك (المعَّبد) وهي من الأضداد وتعني (البعير المذلل والمكرم)[٥٩].

ويتفق الاثنان في ترتيب الأضداد على حروف المعجم ابتداءً من الحرف الأول للمجرد الذي يشتق منه الضد، ولكنهما يختلفان في أن أبن الدهان ترك الأضداد في باب الهمزة مبعثرة من غير ترتيب حسب حروفها الثواني والثوالث، بينما تلافى الصغاني ذلك مرتباً إياها ترتيباً دقيقاً، على أن أبن الدهان لم يكن مقتنعاً بأن كل ما أورده من الأضداد فعندما يذكر اللفظة ومعنييها المتضادين يذيل ذلك بعبارة (وفيه نظر) فمعنى هذا أنه يرجع القارئ إلى كتب الأضداد السابقة التي ذكر مؤلفيها للإطلاع على الشواهد الشعرية والقرآنية الخاصة بها[٦٠]. وهكذا في معظم ألفاظه ويعني ذلك أنه مزعزع الإيمان بضدية اللفظة وشاك في أصالتها للضدية.

الخاتمة:

نستطيع أن نستخلص من هذا البحث النتائج الآتية:-

١. إن الأضداد من المشكلات اللغوية التي واجهت الدارسين في اللغة العربية وقد اختلف العلماء بشأنها بين مؤيد لوجودها ومعارض له.
٢. ومن خلال دراستي لهذا الموضوع أجد أن الأضداد حقيقة لغوية موجودة، في لغتنا العربية وليس هنالك من سبيل لنفي وجودها.
٣. إن الذين يعدون الأضداد مثلبة في لغتنا العربية هم على خطأ لأن وجود معنيين لكلمة واحدة في اللغة لا تعد قصوراً وإنما يدل على اتصال أول اللغة بآخرها، ويدل على أن للسياق في العربية مكانةً مهمةً ودوراً فاعلاً في تحديد الدلالة المناسبة للفظة، فلا خوف من التضاد لأن السياق كفيل بتحديد المعنى المطلوب للفظ.
٤. نجد أن اهتمام القدماء بالأضداد يختلف عن اهتمامهم بالظواهر اللغوية الأخرى، فقد توسعوا في مفردات الأضداد فألفوا فيها الكتب وأسهموا في شرحها ودرسوها دراسة مستفيضة، وبينوا أهميتها في العربية.
٥. هنالك أسباب عديدة لظهور الأضداد في لغتنا وحاول علماء العربية الوقوف عليها.
٦. ومن خلال هذه الدراسة الموجزة لكتابي الأصمعي وابن السكيت في الأضداد نجد أنَّ الكتاب هو لشخص واحد وأظنه لابن السكيت وما الكتاب إلا نسختان لكتاب واحد جرت عليه بعض الإضافة والحذف.

هوامش البحث:

(١) الأضداد للسجستاني: ٧٥.
(٢) مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ١.
(٣) الأضداد لأبي الطيب اللغوي: ج١ / ١.
(٤) الأضداد في اللغة: محمد حسين آل ياسين: ١٠٣ – ١٠٤.
(٥) الصاحبي لأبن فارس: ٦٦.
(٦) مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ١٠٥، الأضداد لأبي الطيب ٣٥١/١، والأضداد للأصمعي: ٣٨.
(٧) مقدمة الأضداد لابن الأنباري: ١٠٥، الأضداد للأصمعي: ٣٨. أبو الطيب ٣٥١/١، الصغاني ٢٣٣.
(٨) الأضداد لأبي حاتم السجستاني: ١١٤.
(٩) الأضداد للأصمعي: ٣٧، الأضداد لأبي حاتم: ٩٩، والأضداد لأبن السكيت: ١٩١، الأضداد للصغاني: ٢٤٦.
(١٠) الأضداد لأبي الطيب: ١ / ٦٣.
(١١) ينظر: الأضداد في اللغة: ١٧٢.
(١٢) مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ٢٥٨.
(١٣) الأضداد لأبي حاتم: ١٣٨، الأضداد لأبي الطيب: ١ / ٦٣.
(١٤) الأضداد لأبن الأنباري: ١١١، الأضداد لأبي الطيب ١٥١/١.
(١٥) الأضداد للأصمعي: ٤٦، الأضداد لابن السكيت: ٢٠٠، مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ١٦٢.
(١٦) المصدر نفسه: ٤٦.
(١٧) مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ١٦٢.
(١٨) المشترك اللفظي: هو انصراف اللفظة الواحدة إلى معنيين أو أكثر بدلالة متساوية. ينظر: في اللهجات العربية ١٩٥ – ١٩٧.
(١٩) ينظر: مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ٢٧، فقه اللغة للثعالبي: ٥٦٥.
(٢٠) الأضداد للأصمعي: ٤٢، مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ٨٤، الأضداد لأبن السكيت: ٢٠٨.
(٢١) الأضداد للأصمعي: ٥٣، الأضداد لأبي حاتم: ١٠٤، الأضداد لأبن السكيت: ٢٠٨.
(٢٢) ينظر: الأضداد للسجستاني: ١٢٠.
(٢٣) ينظر: مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ١٢.
(٢٤) ينظر: المصدر نفسه: ١١٤.
(٢٥) الأضداد للأصمعي: ٤٠، الأضداد لأبن السكيت: ١٩٣، الأضداد لأبي حاتم: ١٠١.
(٢٦) هل العربية منطقية للأب مرمرجي الدومنيكي: ١٣٥ – ١٤٤.
(٢٧) هو أبو علي محمد بن المستنير البصري المعروف بقطرب، من علماء اللغة والنحو، أخذ عن عيسى بن عمر والخليل وسيبويه الذي لقبه بقطرب، قدم بغداد أيام الرشيد وكان مؤدباً لولده الأمين، ألف في الأضداد، النوادر، الصفات، إعراب القرآن، مجاز القرآن، وغيرها الكثير (ت٢٠٦هـ). ينظر: إنباه الرواة ٣ / ٢١٩، بغية الوعاة ١٠٤، تاريخ بروكلمان ١٣٩/٢.

(٢٨) هو أبو محمد عبد الله بن محمد التوزي أو التوجي، من أكابر أئمة اللغة أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد، قرأ كتاب سيبويه على الجرمي، كان أعلم من الرياشي والمازني من مصنفاته الأضداد، الأمثال، والخيل وغيرها (ت٢٣٣هـ). ينظر: بغيه الوعاة ٢٩٠، المزهر: ٢ / ٤٠٧.

(٢٩) هو أبو علي عسل بن ذكوان النحوي العسكري، أخذ عن المازني والرياشي، وعاصر المبرد وكان من طبقته ولم يشتهر شهرته، قرأ كتاب سيبويه على المازني، من مصنفاته أقسام العربية، الأضداد، لم تذكر المصادر وفاته بل اكتفت بتحديد عصره بعصر المبرد. ينظر: بغية الوعاة ٣٢٤، الفهرست: ٧٩.

(٣٠) هو أبو عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه الفسوي الفارسي النحوي، وهو أحد النحاة المشهورين والأدباء البارزين، أخذ عن ابن قتيبة وثعلب، درس كتاب سيبويه على المبرد وبرع فيه، كان شديد التعصب للبصريين، ألف كثيراً من الكتب أهمها: المذكر والمؤنث، الإرشاد في النحو، إبطال الأضداد، وغيرها كثير (ت٣٤٧هـ). ينظر: بغية الوعاة ٢٧٩، أنباه الرواة ٢ / ١١٣، تاريخ بروكلمان ٢ / ١٨٦.

(٣١) المزهر للسيوطي: ١ / ٣٨٥.

(٣٢) مقدمة في الأضداد لأبن الأنباري: ١.

(٣٣) مقدمة في الأضداد لابن الأنباري: ٢.

(٣٤) المصدر نفسه: ١.

(٣٥) ينظر: الأضداد في اللغة: ٢٥٧.

(٣٦) الصاحبي لأبن فارس: ٦٦.

(٣٧) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي الأصمعي، ولد بالبصرة عام (١٢٣هـ) أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، قدم بغداد أيام الرشيد، وكان صاحب لغة وغريب وأخبار ونحو، له مصنفات كثيرة منها: غريب القرآن، الأجناس، الأضداد، الخيل وغيرها الكثير (ت ٢١٦هـ). ينظر: بغية الوعاة: ٣١٣ ، فوات الوفيات: ٢ / ٣٤٤.

(٣٨) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، من كبار اللغويين في عصره، والسكيت هو لقب أبيه إسحاق، يرجح بروكلمان إنه آرامي الأصل، درس أبن السكيت على الفراء، وأبي عمرو الشيباني، من الكوفيين، كما أخذ عن الأصمعي وأبي عبيد من البصريين. من مصنفاته: إصلاح المنطق، النوادر، الأضداد، تهذيب الألفاظ، وغيرها الكثير (ت ٢٤٤هـ). ينظر: بغية الوعاة: ٤١٨ ، الفهرست ١٠٨، تاريخ بروكلمان: ٢ / ٢٠٥.

(٣٩) الأضداد لابن السكيت: ١٧١.

(٤٠) الأضداد للأصمعي: ٣٥ – ٣٧.

(٤١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٢ – ٥٥.

(٤٢) المصدر نفسه: ٦، الأضداد لابن السكيت: ١٦٥، مقدمة في الأضداد لابن الأنباري: ٢٩.

(٤٣) الأضداد للأصمعي: ٨ ، الأضداد لابن السكيت: ١٦٧.

(٤٤) الأضداد للأصمعي: ٨ ، مقدمة في الأضداد لابن الأنباري: ١٦٠.

(٤٥) الأضداد لابن السكيت: ١٦٧

(٤٦) الأضداد للأصمعي: ١٦٣.

(٤٧) المصدر نفسه: ٣٥ – ٣٧.

(٤٨) المصدر نفسه: ينظر الصفحات: ١٥،١٣،١٠،٦.
(٤٩) الأضداد للأصمعي: ٢٨ ، ٥٢.
(٥٠) الأضداد لأبي حاتم السجستاني: ٩٠.
(٥١) المصدر نفسه: ٩٢.
(٥٢) المصدر نفسه: ٩٨ – ٩٩.
(٥٣) المصدر نفسه: ٩٢.
(٥٤) ينظر: مقدمة في الأضداد لابن الأنباري: ٢٣٥.
(٥٥) هو أبو محمد سعيد بن المبارك بن علي الدهان، كان يلقب بسيبويه عصره، انتقل من بغداد إلى الموصل وفيها فقد بصره بعد أن غرقت كتبه في بغداد، أشهر كتبه شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي ويتكون من أربعين مجلداً، وشرح اللمع لأبن جني (ت ٥٦٩هـ). ينظر: بغية الوعاة ٢٥٦، نزهة الألباء ٢٤٧.
(٥٦) هو الحسن بن محمد بن الحسن القرشي العدوي العمري الصغاني، ولد بلاهور، وانتقل إلى بغداد، وتنتقل بينها وبين الهند والصين، كان عالماً باللغة، وله كتب كثيرة أشهرها: التكملة على الصحاح، شرح صحيح البخاري، وغير ذلك (ت ٦٥٠هـ). ينظر: بغية الوعاة: ٢٧٧ ، فوات الوفيات: ١ / ٢٦١.
(٥٧) الأضداد لابن الدهان: ٩٣.
(٥٨) الأضداد للصغاني: ٢٣٢.
(٥٩) المصدر نفسه: ٢٣٥.
(٦٠) الأضداد لابن الدهان: ٩٣.